ابتداء التّبيين هنالك بأداة الحصر هنالك : «إنّما» وهذا دليلٌ على أنّنا بصدد نوعين من التّبيين أحدهما ينهى عن الغلوّ، وآخرهما يبيّن وجه الحقّ. إنّ اللّه الحقّ ليس إلاّ إلهاً واحداً لا شريك له وتنزّه جلّ وعلا عن الصّاحبة والولد، ولا يعجزه جلّ وعلا شيءٌ فى الأرض ولا فى السّماء ، ومن ذلك أن يوجد عيسى عليه السّلام من أمٍ ولا أبٍ، فله جلّ وعلا ما فى السماوات وما فى الأرض ملكاً وخلقاً وعبيدا .

وتختم الآية الكريمة بالتّذييل : «وكفى باللّه وكيلا» أى : وحسب ما فى السّماوات وما فى الأرض باللّه قيّماً ومدبّراً ورازقاً من الحاجة معه إلى غيره (١) : ﴿وقل الحمد للّه الّذى لم يتّخذ ولداً ولم يكن له شريكٌ فى الملك ولم يكن له وليٌّ من الذّلّ وكبّره تكبيرا ﴾(٢) ﴿الذى له ملك السّماوات والأرض ولم يتّخذ ولداً ولم يكن له شريكٌ فى الملك وخلَق كلَّ شيء فقدّره تقديرا ﴾ (٣).

وتأكيداً لاعتداء الغالين فى عيسى عليه السّلام على اللّه تعالى وعلى عبد اللّه تعالى عيسى عليه السلام تنفى الآية الكريمة التّالية أن يستنكف المسيح عليه السّلام ويمتنع ويأنف أن يكون عبداً للّه تعالى فإلى :

الآية رقم (١٧٢)

قال تعالى :

لَّن يَسْتَنكِفَ
ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۚ
وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ
إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴿١٧٢﴾

(١) تفسير الطبرىّ ٦/٢٦ .

(٢) سورة الإسراء ١١١ .

(٣) سورة الفرقان ٢ .

بشأن هذه الجزئيّة الكريمة الأولى فى الآية الكريمة . قال تعالى : ﴿ لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله ولا الملائكة المقرّبون ﴾ نودّ أن نشير إلى النّقاط التّالية :

١ - تكتفى الجزئية الكريمة بصفة عيسى عليه السّلام : «المسيح» بينما جاء فى الآية الكريمة السّابقة : «المسيح عيسى ابن مريم» وقد عرفنا أنّ المسيح بمعنى المسوح والطّاهر من الذّنوب والأدناس والآثام[١] وكأنّ فى اختيار هذه الصّفة تبرئةً له عليه السّلام وتوطئةً للكلام بعدها .

٢ - تستخدم الجزئيّة أداة النّفي المتعلّقة بالمستقبل والّتى تفيد التّأبيد: «لن» وذلك فى القول : «لن يستنكف المسيح» .

٣ - معنى القول : «لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً للّه ولا الملائكة المقرّبون» لن يأنف [٢] ولن يمتنع [٣] ومن ألطف ما يقال بشأن جملة : «يستنكف» إنّها يصحّ أن تكون قد مرّت لغوياً بمرحلتين ، المرحلة الحسيّة الّتى نستنتجها من النّصوص، والمرحلة المعنويّة المستعملة فى الآية الكريمة وفى مطلق الاستعمال . وتفسير ذلك أنّ جملة «يستنكف» ذات علاقة بالنّكَف جمع نكَفَة وهي فى أصل اللّحْي[٤] واللّحي عظم الحنك الّذى عليه الأسنان. وقد أطْلق على

(١) تفسير الطّبرىّ ٦/٢٤.

(٢) تفسير الطّبرىّ ٦/٢٦ ولسان العرب «نكف» ومفردات الرّاغب الأصفهانىّ «نكف» ٥٠٦ .

(٣) لسان العرب «نكف» وانظر أسباب النّزول للواحدى ٢١٨ .

(٤) معجم مقاييس اللّغة لابن فارس : «نكف» ٥/٤٧٩ .

هذا الدّاء النُّكاف، وهو أحد الأدواء الّتى اشتُقّت من العُضْو. وهو داءٌ يأخذ الإبل فى حُلوقها فيقتلها قتلاً ذريعاً، والبعير منكوف والنّاقة منكوفة (١) ويأخذالنّاس كذلك . وقد جاء فى « لسان العرب »(٢) بشأن النّكْفة بسكون الكاف والنّكَفة بفتح الكاف القول : « وقيل : النّكَفتان غدّتان تكتنفان الحلقوم فى أصل اللَّحْى .... وقيل هما عُقْدتان ربّما سقطتا من وجع الحلق فظهر لهما حجم. ونَكِف الرّجل نكَفاً أصابه ذلك . وقيل : النّكفتان العظمان النّاتئان عند شحمة الأذنين يكون فى النّاس وفى الإبل .... وقيل : النّكفتان من الإنسان غدّتان فى الحلق بينهما الحلقوم» .

ونستطيع أن نفهم أنّ الاستنكاف ذو علاقة أوّليّة بهاتين النّكفتين دليلاً على الإعراض والأنفَة . وقد قال ابن فارس (٣) فى هذا الشّأن : «يقال : إبلٌ منكَّفةٌ: ظهرت نكفاتها . ثمّ قيس على هذا فقيل : نَكِفَ من الأمر واستنكف، إذا أَنِفَ منه. معنى القياس فى هذا أنّه لمّا أَنِفَ أعرض عنه وأراه أصل لَحْيِه ، كما يقال أعرض إذا ولّاه عارضَه(٤) وترك مواجهته . والأَنِف من هذا ، كأنّه شَمَخَ بأنفه دونه . والقياس فى جميع هذا واحد . واللّه أعلم بالصواب» .

وإذا كان ابن فارس وقف عند هذه العَلاقة الأوليّة بين جملة استنكف وبين النّكفتين أو الغُدّتين فى الحلق بينهما الحُلقوم، فالمستنكف يرى المُعرض عنه إحدى نكفتيه دليلاً على الصّدود والأَنَفَة، فإنّا نرى أنّ الاستنكاف مرتبطٌ بهذه المرحلة الأوّليّة وبمرحلة أخرى حينما يكون ثمّة ورمٌ بسبب داء النُّكاف الّذى يصيب العنق بالورم ممّا

(١) لسان العرب : «نكف» . (٢) «نكف» .

(٣) معجم مقاييس اللّغة لابن فارس : «نكف» ٥/٤٧٩ .

(٤) العارِض : صفحة الخدّ .

يقترن به بالضّرورة الشّموخ بالأنف . إنّ النّكاف وهو ورمٌ حسّىّ يعطى الإنسان مظهر المصعّر خدّه للنّاس المميل نظره عنهم [١] ويؤدّى إلى ورم نفسى هو الاستنكاف والامتناع والأنفة ممّا ينجم عنه وضعٌ لعنق المستنكف شبيهٌ بوضع العنق فى حال الإصابة بداء النّكاف وورم الغدّتين فى الحلق اللتين بينهما الحُلْقُوم .

وهكذا يتبيّن ارتباط الاستنكاف بالإعراض الحسّىّ وإظهار أصل اللَّحْي، وبالإعراض الحسّىّ كذلك بسبب المرض الّذى يصيب هذا الجزء من العنق، وبالامتناع وبالأنفة. ومن البيّن أنّ الّذى تولّى كِبْرَ الاستنكاف هو الوَرَم بسبب داء النّكاف . ولما كانت الأنفة هنا وليدة ورم وداء ومرض، ولمّا كان النّكاف داءً حسّيّاً والاستنكاف داءً معنوياً وليد داءِ النّكاف، ولمّا كان ثمّة درجةٌ تعلو درجة الاستنكاف والأنفة بسبب الورم وهى درجةٌ من نوعها ولكنّها أسوأ منها وهى درجة الكِبْر، فقد اتّخذت الآية الكريمة بعد ذلك الاستنكاف مطيّةً لذكر الكبر، وهو ورمٌ معنوىّ أكبر من الاستنكاف .

٤- لمّا كان الغالون فى عيسى عليه السّلام يستنكفون أن يكون ﷺ عبداً للّه تعالى بسبب زعمهم أنّه عليه السّلام ليس ابن مريم ولكنّه ابن اللّه : ﴿كبرت كلمةً تخرج من أفواههم إن يقولون إلاّ كذبا﴾ ، ولمّا كان قد استقر فى رُوع البشر سموّ الملائكة الأجسام النّورانية الّتى لا تعصى اللّه ما أمرها وتفعل ما تؤمر به فقد قررّت الجزئيّة الكريمة أنّ عيسى عليه السلام لا يستنكف أن يكون عبداً للّه تعالى، وكذلك لا يستنكف الملائكة المقرّبون الّذين خصّهم اللّه تعالى بالكثير من الكرامات، فلماذا أيّها الغالون فى عيسى عليه السّلام تستنكفون أن يكون عبداً للّه تعالى من لا يستنكف ولا يمتنع أن يكون

(١) انظر مفردات الرّاغب الأصفهانىّ : «صعر» ٢٨١ .

عبداً للّه تعالى. بل إنّ أوّل ما جرى على لسانه عليه السّلام القول[١] : ﴿إني عبد اللّه﴾ .

٥- يصحّ أن نفهم من استخدام «لن» في الجزئيّة الكريمة مظهراً من مظاهر إنباء القرآن الكريم بالغيب. إنّ عيسى عليه السّلام لم يستنكف أن يكون عبداً للّه تعالى، ولن يستنكف حينما ينزل قرب قيام السّاعة من أن يكون عبداً للّه تعالى. وقد جاء في سورة المائدة[٢] في هذا المعنى قوله تعالى : ﴿وإذ قال اللّه يا عيسى ابن مريم أأنت قلت للنّاس اتّخذوني وأمي إلهين من دون اللّه قال سبحانك ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق، إن كنت قلتُه فقد علمتَه . تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك إنّك أنت علام الغيوب . ما قلت لهم إلا ما أمرتني به أن اعبُدوا اللّه ربي وربكم . وكنتُ عليهم شهيداً ما دمتُ فيهم . فلمّا توفّيتَني كنت أنت الرّقيبَ عليهم وأنت على كلّ شيءٍ شهيدا﴾ .

٦- يُعتَبَرُ عيسى عليه السّلام الّذي لا يستنكف أن يكون عبداً للّه تعالى رمزاً للمؤمنين المتّقين الخاشعين المخبتين . وستتحدّث الآية الكريمة التّالية عن ثواب هؤلاء المؤمنين .

فإذا تحوّلنا إلى الجزئيّة الأخرى في الآية الكريمة : ﴿ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر فسيحشرهم إليه جميعا﴾ نتبيّن ما أشرنا إليه من قبل من كون الاستنكاف والأنفة مطيّةً للاستكبار والكبر، كما نتبيّن أنّ الجزئيّة الكريمة لا تكرّر ذكر العبوديّة إنّما تتخطّاها إلى ذكر ثمرتها الشّهيّة والغاية الّتي خلق اللّه سبحانه وتعالى الخلق من أجلها وهي العبادة وقد قال تعالى [٣]: ﴿وما خلقت الجنّ والإنس إلاّ

(١) سورة مريم ٣٠ .

(٢) الآية ١١٦ ، ١١٧ .

٣) سورة الذّاريات ٥٦ .

ليعبدون﴾ .

إنّ الجزئية الكريمة تقرّر أنّ اللّه سبحانه وتعالى سوف يحشر يوم القيامة وسوف يجمع (١) لفصل الحساب الّذين يستنكفون عن عبادته جلّ وعلا ويستكبرون جميعا، وسوف يحشر جلّ وعلا كذلك المؤمنين المتقّين من أجل الحساب فجزيل الّثواب بإذن اللّه تعالى. ولمّا كان المؤمنون المتّقون فوق الكافرين فى الأولى والآخرة فقد قدّمت الآية الكريمة التالية المؤمنين فى الذّكر فإلى

الآية رقم (١٧٣)

قال تعالى :

فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ
فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ
ٱسْتَنكَفُوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا
يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧٣﴾

الآية الكريمة ثنائيّة التّركيب فى كلّ جزئيّاتها . جاء بشأن المؤمنين القول : ﴿ فأمّا الّذين آمنوا وعملوا الصّالحات ﴾ إنّ الإعلان النّظرىّ للإيمان لا يكفى بل لابد من إعطاء الدليل الفعلىّ على الإيمان وذلك بعمل الصّالحات . وجاء بشأن ثواب المؤمنين الّذى تحوّلت إليه الآية الكريمة بعد أن وقفت الآية الكريمة السّابقة عند مجرّد الجمع أو الحشر، جاء بشأن ثواب المؤمنين القول : ﴿فيوفّيهم أجورهم ويزيدهم من فضله ﴾ إنّ الله سبحانه وتعالى يوفّى المؤمنين الّذين عملوا الصّالحات أجورهم كاملة ﷺ غير منقوصة، ويزيدهم

(١) تفسير الطبرىّ ٦/٢٦ وتفسير ابن كثير ١/٥٩١ .

جلّ وعلا من فضله فى جنّات النعيم الّتى فيها ما لا عين رأت ولا أذنٌ سمعت ولا خطر على قلب بشر . وقد جاء فى سورة يونس (١) قوله تعالى : ﴿ للّذين أحسنوا الحُسنى وزيادة . ولا يرهق وجوههمْ قترٌ ولا ذلّة . أولئك أصحاب الجنّة هم فيها خالدون﴾ وجاء بشأن المستنكفين المستكبرين القول : ﴿وأمّا الّذين استنكفوا واستكبروا﴾ ويلاحظ أنّ الآية الكريمة تجمع بين هاتين الصّفتين الاثنتين فى حقّ هذا الفريق الكافر، وذلك على غرار ذكر صفتي المؤمنين الّذين يعملون الصّالحات . وعلى غرار ثواب المؤمنين الّذى له صورتان اثنتان يكون عذاب الكافرين فى صورتين اثنتين كذلك. قال تعالى : ﴿وأمّا الّذين استنكفوا واستكبروا فيعذّبهم عذاباً أليماً ولا يجدون لهم من دون الله وليّاً ولا نصيراً ﴾ .

ونستطيع أن نفهم أنّ كلاً من العذابين من نصيب المستنكفين والمستكبرين وذلك على غرار ثواب المؤمنين وزيادة الفضل من اللّه تعالى. أمّا العذاب الأليم ففى النّار وبئس القرار. ووراء ذلك هم لن يجدوا يوم القيامة من دون اللّه تعالى من يتولىّ أمورهم ويرعى مصالحهم ويهتمّ لحالهم، ولن يجدوا ذلك النّصير الّذى يصرف العذاب عنهم أو يخفّفه والعياذ باللّه .

وتأكيداً لرسالة الإسلام العالميّة تبدأ الآية الكريمة التّالية بنداء كلّ الناس وذلك على غرار النداء فى إحدى الآيات الكريمة من القِسْم السّابق، وعلى غرار أولى آيات السورة الكريمة فإلى

الآية رقم (١٧٤)

قال تعالى :

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ
قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾

(١) الآية ٢٦ .

والمراد بالبرهان الحجّة البالغة والبيّنة الدّامغة، والمعنيّ بها هنا محمّد بن عبدالله ﷺ خاتم النّبيّين وأشرف المرسلين . ويلاحظ مجيء جملة «جاء» الدّالّة على المجيء الفعليّ والقرب والوصول . ويلاحظ مجيء لفظ الرّبّ فى القول : «من ربّكم» ولفظ الرّبّ إنّما يستعمل فى القرآن الكريم حينما يراد التّنبيه إلى فضل اللّه تعالى بتربية عباده بنعمه وآلائه ، وحينما يراد إشاعة جوّ الودّ وعطر الحبّ. إنّ الرّبّ جلّ وعلا الّذى ربّى عباده بنعمه وآلائه هو الّذى جاء من عنده جلّ وعلا رحمة اللّه تعالى المهداة، ونعمته المسداة محمّد بن عبد اللّه ﷺ .

والمراد بالنّور المبين القرآن الكريم الّذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، والّذى يهدى للطّريقة الّتى هى أقوم .

إنّ المطلوب من الناس جميعاً أن يتّبعوا محمداً ﷺ ، البرهان العظيم من ربّ العالمين، وأن يستضيئوا بنور هَدْي القرآن الكريم. إنّ من أطاع فاز وأثيب، ومن عصى خسر وعوقب .

وإنّه على غرار ذكر الجزاء والثّواب فى الآية الكريمة السّابقة، يجيء ذكر الجزاء والثّواب فى الآية الكريمة التّالية، ولكن يُكْتفى به عن ذكر العقاب، لأنه مفهومٌ ضمناً، ولأنّ رحمة اللّه تعالى تسبق غضبه، ومغفرته تسبق عذابه، رغم أنّ الطّابع الغالب على آيات الجزء الأخير من القسم ثنائيّة المعانى. إننّا هنا - مثلا - بصدد البرهان من اللّه تعالى والنور المبين منه جلّ وعلا . فإلى

الآية رقم (١٧٥)

قال تعالى :

فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِهِۦ فَسَيُدْخِلُهُمْ
فِى رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿١٧٥﴾

إنّ الّذين آمنوا باللّه تعالى وحده لا شريك له، وتوكلوا عليه، واعتصموا به جلّ وعلا، واستمسكوا بالقرآن الكريم الّذى تبيّنه سنّة أشرف المرسلين وإمام المتّقين ﷺ، فسيدخلهم اللّه تعالى فى رحمة منه جلّ وعلا واسعة، وفى فضل منه تعالى عظيم، وخيرٍ عميم، ويهديهم إليه جلّ وعلا صراطاً مستقيماً وطريقاً قويماً، إلى الجنّة الّتى فيها ما لا عينٌ رأت ولا أذنٌ سمعت ولا خطر على قلب بشر، وذلك إثر هداية اللّه تعالى لهم فى الدّنيا إلى صراطه المستقيم وإلى سبل السّلام وطرق الجنّة وقد قال تعالى (١): ﴿والذين جاهدوا فينا لنهدينّهم سبلنا وإنّ الله لمع المحسنين﴾ وقال تعالى(٢) : ﴿ يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبيّن لكم كثيراً ممّا كنتم تخفون من الكتاب ويعفو عن كثير . قد جاءكم من اللّه نورٌ وكتاب مبين. يهدى به اللّهُ من اتّبع رضوانه سُبُلَ السّلام ويخرجهم من الظّلمات إلى النّور بإذنه ويهديهم إلى صراطٍ مستقيم﴾ .

---

(١) سورة العنكبوت ٦٩.

(٢) سورة المائدة ١٥ ، ١٦ .

وحينما نقارن بين ثواب المؤمنين هنا وبين ثوابهم فى الآية الكريمة قبل السّابقة نتبيّن مزيد الرّحمة والهداية إلى الصّراط المستقيم والحياة الطّيّبة فى الأولى والآخرة. وقد عرفنا أنّ السّياق اكتفى بعذاب الكافرين فى الحياة الكريمة قبل السّابقة لأنّه مفهومٌ ضمناً، ولأنّ هذه الآية الكريمة تشير إلى رحمة اللّه تعالى وفضله وصراطه المستقيم. وما أجمل أن تكون هذه المعانى السّامية والأنباء السّارّة والأخبار المبهجة آخر ما يمرّ على عقول متدبّرى القرآن الكريم، ونفوس متأمّليه بين يدي آخر آيات السّورة الكريمة فى الميراث آية الكلالة .

(٢٢)
آيــة الكـلالــة
الآية (١٧٦)

يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى ٱلْكَلَٰلَةِ ۚ إِنِ ٱمْرُؤٌا۟ هَلَكَ
لَيْسَ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَهُۥٓ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ ۚ وَهُوَ يَرِثُهَآ
إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ ۚ فَإِن كَانَتَا ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ ۚ
وَإِن كَانُوٓا۟ إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَآءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۗ
يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا۟ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿١٧٦﴾

الآية الكريمة الاخيرة من السورة الكريمة آية الكلالة . وهى الآية الكريمة الثالثة والأخيرة فى الفرائض أو المواريث ، وهى كذلك آخر آيات الأحكام نزولاً على المصطفى صلّى اللّه عليه وسلّم ، وتتحدّث فى الّذى يموت كلالةً بمعنى أنّه لا ولد له ولا والد .

فإن كانت له أختٌ شقيقة أو من أب فلها نصف ماترك وهو يرث كلّ مالها إن لم يكن لها ولد لأنّ للذّكر مثل حظ الأنثيين ، فإن كانتا اثنتين فلهما نصف ماترك أخوهما . وإن كانوا إخوةً ذكوراً وإناثاً فللذّكر مثل حظّ الأنثيين .

إن اللّه سبحانه وتعالى يبيّن لنا شرائع ديننا ومنها المواريث أو الفرائض لئلاّ نضلّ عن سواء السّبيل . وبهذه الآية الكريمة تكمل الآيات الكريمات الثلاث فى علم المواريث ، وهى آياتٌ كريماتٌ تُرْضى كلّ عقلٍ بفصوص حكمها ، وتشبع كلّ نفسٍ بانسياب معانيها ، وتطرب كلّ أذنٍ بجميل جرسها .

الآية رقم (١٧٦)

قال تعالى :

يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى ٱلْكَلَٰلَةِ ۚ إِنِ ٱمْرُؤٌا۟ هَلَكَ
لَيْسَ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَهُۥٓ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ ۚ وَهُوَ يَرِثُهَآ
إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ ۚ فَإِن كَانَتَا ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ ۚ
وَإِن كَانُوٓا۟ إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَآءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۗ
يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا۟ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿١٧٦﴾

سبب النزول :

عن جابر بن عبد اللّه قال : مرضت فأتانى النّبىّ صلّى اللّه عليه وسلّم يعودنى هو وأبو بكر رضى الله عنهما فوجدونى قد أغمى علىّ فتوضّأ رسول الله

هو و أبو بكر وهما ماشيان

صلّى اللّه عليه وسلّم ثمّ صبّ علىّ من وَضُوئه فأفقت فقلت يارسول اللّه : كيف أقضى فى مالى أو كيف أصنع فى مالى ، وكان له تسع أخوات ، ولم يكن له والدٌ ولا ولد . قال : فلم يجبنى شيئاً حتّى نزلت آية الميراث : يستفتونك قل اللّه يفتيكم فى الكلالة . إلى آخر السّورة . قال ابن المنكدر : قال جابر : إنّما أنزلت هذه الآية فىّ (١) .

وقد أشكل حكم الكلالة على أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى اللّه عنه كما ثبت عنه فى الصّحيحين أنّه قال : ثلاثٌ وددت أنّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم كان عهد إلينا فيهنّ عهداً ننتهى إليه ، الجدّ والكلالة وبابٌ من أبواب الرّبا (٢) وروى الإمام أحمد أنّ عمر بن الخطّاب قال : ماسألت رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم عن شىءٍ أكثر ممّا سألته عن الكلالة حتّى طعن بأصبعه فى صدرى وقال : يكفيك آية الصّيف التّى فى آخر سورة النّساء . هكذا رواه مختصراً وأخرجه مسلم مطوّلاً أكثر من هذا (٣) وكأنّ المراد بآية الصّيف أنّها نزلت فى فصل الصّيف . واللّه أعلم (٤) قال قتادة : وذكر لنا أنّ أبا بكر الصّدّيق رضى اللّه عنه قال فى خطبته : ألا إنّ الآية الّتى أنزل اللّه فى أوّل سورة النّساء فى شأن الفرائض أنزلها اللّه فى الولد والوالد والآية الثانية أنزلها فى الزّوج والزّوجة والإخوة من الأمّ ، والآية الّتى ختم بها سورة النّساء أنزلها فى الإخوة والأخوات من الأب والأمّ . والآية الّتى ختم بها سورة الأنفال أنزلها فى أولى الأرحام بعضهم أولى ببعضٍ فى كتاب اللّه ممّا جرّت

---

(١) تفسير الطّبرىّ ٦ / ٢٨ وانظر أسباب النّزول للواحدىّ ٢١٨ وتفسير ابن كثير ١ / ٥٩٢ وتفسير القرطبىّ ٢٠٢٤ وفى بعض الرّوايات سبع أخوات .
(٢) تفسير ابن كثير ١ / ٥٩٢ وتفسير الطّبرىّ ٦ / ٣٠ .
(٣) تفسير ابن كثير ١ / ٥٩٣ وتفسير الطّبرىّ ٦ / ٣٠ .
(٤) تفسير ابن كثير ١ / ٥٩٣ .

الرّحم من العصبية (١) .

تخاطب الآية الكريمة المصطفى صلّى اللّه عليه وسلّم وتقول له : " يستفتونك " أيّها الرّسول الكريم والنّبي العظيم ويسألونك يا محمّد أن تفتيهم فى الكلالة (٢) روى الشّعبيّ عن أبى بكرٍ الصّدّيق أنّه سئل عن الكلالة فقال : أقول فيها برأي فإن يكن صوابا فمن اللّه ، وإن يكن خطأً فمنّى ومن الشّيطان ، واللّه ورسوله بريئان منه : الكلالة من لا ولد له ولا والد . فلمّا وَلِيَ عمر قال : إنىّ لأستحيى أن أخالف أبا بكر فى رأي رآه (٣) .

وإذا كان المصطفى صلّى اللّه عليه وسلّم هو المسئول فإنّ ربّ العزّة هو الّذى يجيب فى آيةٍ كريمةٍ ثالثة ثلاث آياتٍ كريماتٍ فى علم المواريث أو الفرائض. قال تعالى : ﴿ قل اللّه يفتيكم فى الكلالة ﴾ وهذه هى الفَتْوى أو الفُتْيا قال تعالى: ﴿إن امرؤ هلك ليس له ولدٌ وله أختٌ فله نصف ما ترك﴾ إن حرف شرط جازم امرؤ: فاعل فعلٍ محذوف يفسّره المذكور بعده ، أى إن هلك امرؤ(٤) يعنى بقوله : إن امرؤٌ هلك : إن إنسانٌ من النّاس مات(٥)﴿ أى ليس له ولدٌ ولا والد ، فاكتفى بذكر أحدهما .

قال الجرجانّى : لفظ الولد ينطلق على الوالـــد والمولـــود ، فالوالد يُسَمَّى والداً لأنّه وَلَد ، والمولود يُسَمّى ولداً لأنّه وُلِد ، كالذّرّيّة فإنها من ذَرَا ثمّ تطلق على المولود وعلى الوالد.قال اللّه تعالى : وآيةٌ لهم أنّا حملنا ذرّيّتهم في الفلك المشحون (٦) وقد استنتج ابن كثير هذا المحذوف فى الآية الكريمة يقول(٧): "فدلّ على أنّه من لا ولد له بنصّ القرآن ، ولا والد بالنّصّ عند

(١) تفسير الطّبرىّ ٦ / ٢٨ . (٢) تفسير الطبرى ٦ / ٢٨ .
(٣) تفسير ابن كثير ١ / ٤٦٠ وانظر صحيح البخارى ٦ / ٦٣ .
(٤) الجدول فى إعراب القرآن وصرفه ٣ / ٢٢٠ .
(٥) تفسير الطّبرىّ ٦ / ٢٨ .
(٦) تفسير القرطبىّ ٢٠٢٤ .
(٧) تفسير ابن كثير ١ / ٥٩٣ .

التأمل أيضاً ، لأنّ الأخت لا يُفْرَض لها النّصف مع الوالد بل ليس لها ميراثٌ بالكلّيّة " عن السّدّى : إن امرؤٌ هلك ، يقول : مات ليس له ولد ذكرٌ ولا أنثى (١) .

" وله أخت " : يعنى وللميّت أختٌ لأبيه وأمّه أولأبيه (٢) وقد عرفنا أنّ الإخوة لأمّ تحدّثت عنهم الآية الكريمة الثّانية من آيات المواريث الثلاث .

" فلها نصف ما ترك " فلها النّصف من تركته فريضةٌ لها مسمّاة . فأمّا إذا كان للميّت ولدٌ أنثى فهى معها عصبة يصير لها ما كان يصير للعصبة غيرها لو لم تكن ، وذلك غير محدود بحدّ ، ولا مفروضٍ لها فرضٌ سهامِ أهل الميراث بميراثهم عن ميّتهم (٣) .

" وهو " أى الأخ كذلك (٤) " يرثها " جميع ما تركت (٥) " إن لم يكن لها ولد " ولا والد (٦) فإن كان لها ولد ذكرٌ فلا شيء له . أو أنثى فله ما فضل عن نصيبها . ولو كانت الأخت أو الأخ من أمٍّ ففرضه السّدس كما تقدّم أوّل السورة (٧) .

" فإن كانتا " أى الأختان " اثنتين " أى فصاعداً لأنّها نزلت فى جابر وقد مات عن أخوات " فلهما الثلثان مما ترك " الأخ (٨) ومن ههنا أخذ الجماعة حكم البنتين . كما استفيد حكم الأخوات من البنات فى قوله (٩) : فإن كنّ نساءً فوق اثنتين فلهنّ ثلثا ماترك (١٠) " وإن كانوا " أي الورثة :

---

١) تفسير الطّبرىّ ٦ / ٢٨ .
٢) تفسير الطّبرىّ ٦ / ٢٨ .
٣) تفسير الطبرى ٦ / ٣١ .
٤) الجلالين وتفسير الطّبرىّ ٦ / ٣١
٥) الجلالين .
٦) تفسير الطّبرىّ ٦ / ٣١ .
٧) الجلالين .
٨) الجلالين
٩) سورة النساء ١١ .
١٠) تفسير ابن كثير ١ / ٥٩٤ .

" إخوةً رجالاً ونساءً فللذّكر " منهم " مثل حظ الأنثيين " (١) .

وفى التعقيب : " يبيّن اللّه لكم أن تضلّوا " تبين الآية الحكمة من الفتوى فى الكلالة وتبيّن الأحكام فى المواريث للسّائلين وللنّاس أجمعين . إنّ اللّه سبحانه وتعالى يبيّن لنا شرائع ديننا لئلاّ نضلّ (٢) فى أمر المواريث وقسمتها ، ولئلاّ نجور عن الحقّ فى ذ لك ونخطىء الحكم فيه ، فنضلّ عن قصد السّبيل (٣) وأسقطت لا من اللّفظ وهى مطلوبةٌ فى المعنى دلالة الكلام عليها . والعرب تفعل ذلك ، تقول : جئتك أن تلومنى ، بمعنى جئتك ألاّ تلومنى ، كما قال القطامىّ فى صفة ناقة :

رأينا ما يرى البصراء فيها ∴ فآلينا عليها أن تباعا

بمعنى ألاّ تباع (٤) .

وفى التذييل : " واللّه بك شىء عليم " نحن بصدد لفظ الجلالة "اللّه" الّذى يستعمل فى مواطن العموم ، وقد جاء إثر خطاب كلّ النّاس ، وبصدد صيغة المبالغة " عليم " إنّ اللّه سبحانه وتعالى عليم بكلّ شىءٍ ، ومن ذلك ما يستحقّه كلّ إنسانٍ خلقه اللّه تعالى فى مجال الميراث ، فاتّقوا اللّه تعالى كما أمرتكم فى أول السّورة الكريمة ، واحذروا أن تضلّوا بعد أن بيّنت لكم طريق الهدى ووضعت لكم معالم سبيل الرّشاد وأعطيت كلّ ذى حقٍ حقّه .

روى الشّيخان عن البراء أنّها آخر آيةٍ نزلت أي من الفرائض (٥) وقال

---

(١) الجلالين .

(٢) تفسير الطّبرىّ ٦ / ٣١ وتفسير ابن كثير ١ / ٥٩٤ والجلالين وتفسير القرطبىّ ٢٥ / والبحر المحيط ٣ / ٤٠٩ وتفسير ابن عطيّة ٤ / ٣١٠ ومعانى القرآن للفرّاء ١ / ٢٩٧ .

(٣) انظر تفسير الطّبرىّ ٦ / ٣١ .

(٤) تفسير الطّبرىّ ٦ / ٣١ وانظر البحر المحيط ٣ / ٤٠٩ .

(٥) الجلالين .

البخارى (١) : " حدّثنا سليمان بن حربٍ حدّثنا شعبة عن أبى إسحاق ، سمعت البراء رضى الله عنه قال : آخر سورةٍ نزلت براءة ، وآخر آيةٍ نزلت يستفتونك : أي فى الأحكام .

وصلى الله وسلّم على سيّدنا محمّد وعلى آله وصحبه أجمعين والحمد لله ربّ العالمين .

مكّة المكرّمة

صبيحة يوم الجمعة ٢٩ / ٤ / ١٤١١ هـ

الموافق ١٦ / ١١ / ١٩٩٠ م

(١) الصحيح ٦ / ٦٣ .

الخاتمـــــة

بفضل من اللّه تعالي ونعمة، درسنا فى الصّفحات السّابقة سورة النّساء دراسةً متأملة، وهذه الدّراسة المتأمّلة هي الخامسة عشرة فى هذه السّلسة للدّراسات المتأملة لسور القرآن الكريم. وقد أمكن تقسيم السّورة الكريمة إلى اثنين وعشرين موضوعاً، حمل كلّ موضوعٍ منها عنواناً مستقلاً.

لقد درسنا الآيات (١ـ١٠) تحت عنوان : « الأمر بتقوى اللّه تعالي وصلة الأرحام وبالقسط في اليتامي والنّساء » وقد تبين ابتداء السّورة الكريمة المدنيّة بأمر النّاس بتقوى اللّه تعالى ، كما تبيّن أنّه يُفْهَمُ من أولى الآيات الكريمات أنّ الإنسان أخو الإنسان من جهة الإله الواحد والرّبّ الواحد، ومن جهة الأب الواحد، وينبغى أن يكون النّاس إخوةً من جهة الدّين الواحد دين الإسلام الّذي بعث اللّه تعالي به محمّداً ﷺ. ولّما كانت عناية الآية الكريمة الأولي بالأرحام واضحة فقد كان فى هذه العناية التّنبيه إلى عناية السّورة الكريمة بأولى القربى وبكلّ الضّعفاء، ومن هنا كانت العناية باليتامى ذكوراً وإناثاً من جهة المال الّذى لاينبغى أن يبدّل ولا أن يؤكل، وبيتامى الإناث اللاّتى ينبغى على الأولياء أن يؤتوهنّ مهورهنّ كاملة إن رغبوا في الزّواج بهنّ وإلاّ كان لهم مندوحة فى الزّواج بغيرهن حتّى أربع نسوة شريطة العدل ، وإلاّ فوجب الاكتفاء بزوجةٍ واحدةٍ أو بملك اليمين. ولمّا كان منطلق الحديث عن يتامى النّساء مهورهنّ فقد كان بعد ذلك تحوّلٌ إلى أمر الأزواج بإيتاء النّساء مهورهنّ عن رضا نفسٍ وطيب خاطر، فإن طابت الزّوجة عن شيءٍ من المهر نفساً لزوجها فليأكله هنيئاً مريئا. ولمّا كانت العناية بالمال كبيرةً وكان السّفهاء مبذّرين لأموالهم ، فقد نزّلت السّورة الكريمة أموال السّفهاء منزلة أمول الأولياء، فعليهم ألاّ يؤتوها أصحابها من السّفهاء، وأن يحسنوا القيام عليها، وأن يرزقوهم ويكسوهم فيها ومن ربحها، وأن يقولوا للسّفهاء قولاً معروفاً . فإذا بلغ الأطفال الحُلُم على الأولياء أن يعطوهم أموالهم وأن يُشْهدوا على ذلك وعليهم ألا يأكلوها عن طريق التّبذير والإسراف قبل أن يكبر اليتامى . وإنّ على من كان من الأولياء غنيّا أن يستعفف عن مدّ يده إلى مال اليتيم والسّفيه، ومن كان فقيراً أن يأكل بالمعروف. وقد بيّن اللّه تعالى فى الميراث لكلّ ذى حقّ حقّه، وإذا حضر قسمةالميراث أولو القربى واليتامى والمساكين يندب السّياق إلى إعطائهم شيئاً منه وإلى أن يقال لهم المعروف من

القول. وبعد إيصاد كلّ الأبواب الّتى تؤدّى إلى أكل أموال اليتامى بالباطل .. يأمر السّياق الأولياء بخشية اللّه تعالي ، وأن ينزلوا اليتامى منزلة أولادهم اليتامى فيما لو لحقوا بالرّفيق الأعلى. إنّ على الأولياء أن يعاملوا اليتامى وفق الطّريقة التى يريدون لأولياء أولادهم اليتامى أن يعاملوهم فيها « فليتّقوا اللّه وليقولوا قولاً سديدا » وبما أنّ ثمّة من يأكل أموال اليتامى ظلماً رغم كلّ هذه النواهى فإنّ آخر آيات القسْم تؤكّد أنّ من يأكل أموال اليتامى ظلماً إنّما يأكل فى بطنه ناراً وسيصلى سعيرا.

وقد درسنا الآيات(١١ـ١٤)تحت عنوان: «آيات الميراث» ومنْ آيات الميراث الأربع هذه آيتان تعقيبيتان، فكأنّنا بصدد آيتين كريمتين فى الميراث إضافةً إلى آية الميراث الأخيرة فى السّورة الكريمة، وهي آية الكلالة الأخرى. ولايكاد عجب الإنسان ينتهى حينما يتبيّن أنّ آيات الميراث هذه، تسيل رقّةً وعذوبة، وتقنع كلّ عقل وتشبع كلّ نفسٍ، بجليل معناها وجميل مبناها، رغم مايتّسم به علم الحساب من غلبةٍ للعقل واختفاءٍ للعاطفة، فكيف إذا كان علم الحساب هنا هو علم الفرائض أو المواريث؟إنّ المرء ليقف مشدوهاًأمام هذا المظهرمن مظاهر إعجاز القرآن الكريم. وامتداداً لتحقيق السّياق التّوازن بين العقل والنّفس أو العاطفة تُتْبَعُ آيتا الميراث بآيتين تعقيبيّتين تبيّن أولهما ثواب الطّاعة ، وتبيّن أخراهما عقاب المعصية.

وقد درسنا الآيات(١٥ـ١٨)تحت عنوان: «حكم الزّنا فى أوّل الإسلام وشروط التّوبة»وقد تحدّثت الآيتان الكريمتان الأوليان عن حكم الزّنا في فجر الإسلام، وقد نُسِخ هذا الحكم بالحكم الّذي تضمّنته سورة النّور، ونّص عليه الحديث النّبويّ الشريف. وإنّ الحديث عن حكم الزنا دليلٌ على فرط اهتمام الإسلام بالإنسان قبل أن يولد.

ومما يتعلّق بذلك أنّ القرآن الكريم يجمع عادةً فى نسق بين النّهي عن قتل النّفس البريئة وعن الزّنا، دليلاً علي أنّ الزّنا نوعٌ من القتل. وقد تحدّثت الآيتان الكريمتان الأخريان عن التّوبة المقبولة بفضل اللّه تعالى وغير المقبولة بعدل اللّه تعالى.

وقد درسنا الآيات(١٩ـ٢٤)تحت عنوان: «وصايا بالنّساء وبيان المحرّمات منهنّ» ومن وصايا السّورة الكريمة بالنّساء اللاّتى تحمل السّورة الكريمة اسمهنّ نهي

الأزواج عن الاستيلاء على أموال النّساء كرهاً وعن عضلهنّ من أجل الحصول على أموالهنّ إلاّ أن يأتين بفاحشةٍ بيّنةٍ من بذاءة لسان ونشوز وما إلى ذلك. وتأمر السّورة الكريمة الأزواج بأن يحسنوا عشرة زوجاتهم، وأن يصبروا عليهنّ، وتنهاهم عن أخذ شيءٍ ممّا أعطوه المطلّقات منهنّ مهما كان ما أعطوه إياهنّ كبيراً، فإنّ إفضاء كلٍّ من الزّوجين إلى الآخر أكبر من كلّ مال. ولّما كان نكاح المقت معمولاً به في الجاهليه وهو أن يتزوّج الابن امرأة أبيه بعد وفاته عنها أو طلاقها منه فقد نهى السّياق عن نكاح المقت هذا، وفي هذا النّهي رفع لبعض أنواع الحيف الّتي كانت تلحق بالمرأة قبل الإسلام. وبشأن النّساء المحرمات وهنّ سبعٌ نسباً وسبعٌ صهراً، راعنا التّرتيب العجيب لهؤلاء المحرّمات بحيث إنّ السّياق يقدّم دائماً وأبداً المرأة الأولى بالتّحريم في أسلوب القرآن الكريم المعجز، وكما راعنا أسلوب القرآن الكريم المعجز في سرد علم المواريث أو الفرائض راعنا الأسلوب المعجز في سرد المحرّمات من النّساء. ويعود السّياق إلى ذكر الصّداق الّذي جعله الله تعالى حقاً للزّوجة، كما يعود إلى ذكر ما تطيب به الزوجة نفساً لزوجها عن شئ من المهر وما وراء المهر ، وما يطيب به الزّوج نفساً لزوجته وراء المهر. إنّ الله سبحانه وتعالى هو دائما وأبدا العليم الحكيم.

وقد درسنا الآيات (٢٥ـ٢٨) تحت عنوان: «بعض الأحكام في شئون النّساء» وقد كانت هذه الأحكام متعلّقةً بالإذن لمن خشي التّورّط في جريمة الزّنا وعجز عن زواج الحرّة العفيفة، أن يتزوّج الأمَة المؤمنة بإذن أهلها وبدفع المهر الّذي جعله الله تعالي حقّاً لها، ومتعلقةً بحدّ الأمة إذا تورّطت في جريمة الزّنا متزوّجة أو غير متزوّجة وهو نصف حدّ الحرّة ، أي أن تجلد خمسين جلدةً لأنّ الرّجم لا يتبعّض. وعلى الرّغم من الإذن بنكاح الأمَة يحثّ السّياق الحرّ على الصّبر كيلا يكون الأبناء أرقّاء، كما يبيّن السّياق فضل الله تعالى علينا بتبيين معالم ديننا، وبالتّخفيف علينا ونحن الضّعفاء، كما يحذّرنا من أعدائنا الّذين يريدون لنا أن ننحرف عن جادّة الصّواب انحرافاً خطيراً، وبخاصّةٍ في ميدان النّساء.

وقد درسنا الآيات(٢٩ـ٣٣)تحت عنوان: «عنايةٌ بالأموال والدّماء وحثٌّ على القناعة وإيتاء ذي الحقّ حقّه» لقد نهى السّياق الذّين آمنوا عن أكل بعضهم أموال بعضٍ بالباطل وعن قتلهم أنفسهم، فإنّ مصير من عصى الله تعالى النّار وبئس القرار، وثواب

من أطاع اللّه تعالى تكفير السّيئات ودخول الجنّات. وينهى السّياق كذلك الرّجال والنّساء أن يتمنّى بعضهم ما فضّل اللّه تعالي به بعضهم على بعض، ويأمرهم بأن يسألوا اللّه تعالى من فضله. وقد أشارت آخر آيات القسْم إلى الميراث، وإلى الإرث بالحِلف فى الجاهليه وصدر الإسلام ، إنّ آيات المواريث فى هذه السّورة الكريمة نسخت كلّ أنواع الميراث السّابقة من حِلْف وهجْرة ومؤاخاة وبيّنت حقّ كلّ وارث.

وقد درسنا الآيتين (٣٤، ٣٥) تحت عنوان: «للرّجال حقّ القِوامة على النّساء». وقد تبيّن أنّنا بصدد توزيع اختصاصات، فمن اختصاصات الرّجال القِوامة على النّساء بسبب استعدادهم للقيام بهذا العمل، وبسبب ما أنفقوا من أموالهم وينفقون. وإنّ الصّالحات من المؤمنات طائعاتٌ لأزواجهنّ حافظاتٌ للغيب بحفظ اللّه تعالى الّذي أمرهنّ بذلك الحفظ. وحينما يكون النّشوز من الزّوجة فإنّ السّياق يعيّن الخطوات الثلاث المتوالية الّتي يسير وفقها الزّوج الواحدة تلو الأخرى فى سبيل علاج هذا النّشوز. فهنالك الوعظ، ثمّ الهجر فى المضجع، ثمّ الضّرب غير المبرِّح بالسّواك مثلاً وفرشاة الأسنان وما إليهما ، وينْهى الأزواج عن البغي على الزّوجات. وعليهم أن يعلموا أنّ اللّه سبحانه هو العليّ وهو الأكبر من كلّ كبير. وحينما يكون النشوز من الطّرفين فإنّ المطلوب من الأولياء أو القضاة أو الولاة أن يبعثوا حكماً من أهله وحكماً من أهلها. ويقرّر السّياق أنّ الحكمين إن يريدا إصلاحاً يوفّق اللّه تعالى بين الزّوجين، إنه جلّ وعلا هو العليم بظواهر الأمور الخبير ببواطنها.

وقد درسنا الآيات (٣٦ـ٤٣) تحت عنوان: «الأمر بعبادة اللّه وطاعة الرّسول وبالإحسان إلى العباد والنّهي عن الشّرك بأنواعه». إنّه بشأن مجموعة الأوامر فى أولى آيات القسم كان الابتداء بأهمّها وهو عبادة اللّه تعالى وحده لاشريك له، تلا ذلك الأمر بالإحسان إلى الوالدين وبمجموعات من النّاس روعي فى ترتيبهم الأوْلى فالأوْلى والأقرب فالأقرب. وختمت الآية الكريمة بالنّهي عن الاختيال وعن الفخر . وكان كلّ من الآيتين الكريمتين التاليتين تفسيراً للاختيال بشأن الآية الكريمة الأولى وتفسيراً للفخر بشأن الآية الكريمة الأخرى. أمّا الاختيال فمتعلق بالبخل وأمر النّاس بالبخل وكتمان العبد ما آتاه اللّه تعالى من فضله من مال وعلم ونحوهما، ومتعلّقٌ بالكفر باللّه تعالى وبنعمه جلّ وعلا. وأمّا الفخر فمتعلق بالإنفاق رئاء النّاس، وعدم

الإيمان باللّه تعالى وباليوم الآخر ، وكون الفخور أداةً طيّعةً للشّيطان الرّجيم وفي أسلوب الاستفهام ينكر السّياق على الكافرين والبخلاء كفرهم وبخلهم . كما يقرّر السّياق عدل اللّه تعالى في حقّ السّيئات وفضله في حقّ الحسنات ، ويهوّل يوم القيامه الّذي يجئ فيه بأمر اللّه تعالى رسول كلّ أمة شهيداً عليها، ويودّ فيه الكافرون لو أنّ الأرض انشقت وابتلعتهم. وإنّ هذا القسم الّذي ابتدأ بالأمر بعبادة اللّه وحده لاشريك له يختم بالحديث عن الصّلاة عماد الدّين، والنّهي عن الاقتراب منها حال السُّكر وحال الجنابة إلاّ في حقّ عابري السّبيل حتّى يغتسل الجنب. وفي حال عدم وجود الماء أو عدم القدرة على استعماله في حقّ المرضى ، والّذين هم على سفر، والذين عليهم الحدث الأصغر أو الأكبر عليهم أن يتيمّموا من أجل إقامة الصّلاة الّتي جعلها اللّه تعالى على المؤمنين كتاباً موقوتا.

وقد درسنا الآيات(٤٤-٥٧)تحت عنوان: « من صفات أهل الكتاب السّيّئة، وعقاب الكافرين وثواب المؤمنين» ويتحدّث السّياق عن كافري أهل الكتاب من بني إسرائيل فهم الّذين يشترون الضّلالة ويريدون للمؤمنين أن يضلوا السّبيل ، وهم أعداء المسلمين بل أشدّهم عداوةً لهم ، وهم الّذين يحرّفون الكلم في التّوراة عن موضعه ويصرفون معناه عن وجهه ، وهم الّذين يقولون للنّبيّ ﷺ: سمعنا قولك وعصينا أمرك، وهم الّذين يُعْرَفون بلحن القول: إنهم حينما يقولون للنّبيّ ﷺ: «اسمع غير مسمع» يريدون المعنى السّيئ وهو الدّعاء عليه ﷺ بالموت كيلا يسمع شيئاً مطلقاً، ولا يريدون المعنى الحسن وهو لاسمعت شيئاً يسوؤك لجلال قدرك. وإنهم حينما يقولون : «راعنا» يريدون المعنى السّئ وهو إتّهامه عليه الصّلاة والسلام بالجنون، ولايريدون المعنى الحسن وهو: أرْعنا سمعك واستمع إلينا. إنّ اليهود يريدون بقولهم: «راعنا» المعنى السّيئ وقد يتحقّق لهم ليّ ألسنتهم في النّطق فيقولون: «راعونا» وهي كلمةٌ بلغتهم يوافق معناها السّيئ المعنى السّيئ الّذي يريده اليهود دائماً في خطابهم للنّبيّ ﷺ وقولهم «راعنا» وبهذا يتحقق لهم عليهم لعائن اللّه تعالى في القول: «راعونا» سوء النية وسوء النّطق. ويضع السّياق البديل الصحيح لهذه المعاني الملتوية والألفاظ المعوجّة، ويقرّر أنّ القوم قد لعنهم اللّه تعالى بسبب كفرهم. ويهدّدهم السّياق إن لم يؤمنوا بالقرآن الكريم بطمس وجوههم بالكلّيّة وجعل

الملتوية

وجوههم المطموسة أدباراً، أو بلعنهم كما لعن الله تعالى أصحاب السّبت المعتدين فيه من بنى إسرائيل. ويقرّر السّياق أنّ الله سبحانه وتعالى لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء، ويعيب علي أولئك الّذين يزكون أنفسهم لأنهم منهيّون عن ذلك، ولأنّهم كاذبون. ومن مظاهر كذب بنى إسرائيل إيمانهم بالسّحر والشّيطان الرّجيم ، وقولهم لمشركى مكّة إنّهم أهدى من المؤمنين سبيلا! إنّهم استحقّوا أن يلعنهم الله بسبب ذلك الكذب وبسبب حسدهم للمصطفى ﷺ وللمؤمنين. ويسلّى السّياق المصطفى ﷺ حينما يبيّن أن بنى إسرائيل حسدوا الأنبياء من ذرّيّة إسحاق عليه السّلام فكيف لايحسدونك وأنت من ذرّيّة إسماعيل عليه السّلام. وفى الآيتين الأخيرتين فى القسم يبيّن السّياق عذاب الكافرين الأليم، وثواب المؤمنين العظيم .

وقد درسنا الآيات(٥٨ـ٧٠)تحت عنوان: «الأمر بأداء الأمانه والحكم بما أنزل الله وبطاعة الرّسول ، وتبيين ثواب الطّائعين » . وتأمر أولى آيات القسم بأداء الأمانات إلى أهلها، وبالحكم بين النّاس كلّ النّاس، بالعدل، وتقرّر أنّ هذا الأمر نِعْمَ شيئاً يعظنا به ربنا السميع البصير جلّ وعلا، وتأمر الآية الكريمة الأخرى بطاعة الله تعالى وطاعة رسوله ﷺ طاعة مطلقة ، وبطاعة أولى الأمر إذا هم أطاعوا الله تعالى وأطاعوا رسوله ﷺ، فإن اختلفنا فى شئ رددناه إلى كتاب الله تعالى وإلى سنّة رسوله ﷺ . إنّ ذلك الرد خيرٌ حالا وخيرٌ مآلا . وحينما لا يكون هنالك رجوعٌ إلى الله تعالى وإلى رسوله عليه الصّلاة والسّلام يكون هنالك رجوعٌ إلى الطاغوت وإلى الشّيطان الرّجيم، وذلك هو ما يفعله المنافقون المعرضون عن المصطفى ﷺ، ساعة اليسر، المضطرّون إليه ﷺ ساعة العسر، الكاذبون فى أقوالهم ، الّذين يعلم الله تعالى مرض قلوبهم، فعليه ﷺ أن يعرض عنهم، وأن يعظهم، وأن يقول لهم قولا بليغا. وبقصد تسليته عليه الصّلاة والسّلام يجىء القول: «وما أرسلنا من رسولٍ إلاّ ليطاع بإذن الله» ويرشد السّياق المنافقين إلى الصّراط المستقيم بأن يتوبوا الى الله تعالى توبة نصوحا ، وأن يتّبعوا الرّسول الكريم وأن يرضوا بحكمه عليه الصّلاة والسّلام. وإنّ من رحمة الله تعالى بالمنافقين أنّ قبول الله تعالى توبتهم لايشترط ما اشتُرط على بنى إسرائيل لقبول توبتهم من قتل الّذين لم يعبدوا العجل الّذين عبدوا العجل، هذا إلى أنّ الله تعالى أمرهم بالخروج من أرض مصر إلى أرض الشّام. إنّ

شيئاً من هذا لو اشترط فى حقّ المنافقين لما فعله إلاّ القليل منهم. وإنّ الّذي طُلب من المنافقين هو التّوبة النّصوح كي يكون إيمانهم راسخاً، وأجرهم عظيما، وصراطهم مستقيما. إنّ كلّ من يطيع اللّه والرّسول سيكون بإذن اللّه تعالى مع المنعم عليهم من النّبيّين والصّدّيقين والشّهداء والصّالحين . ما أحسن رفقة هؤلاء في الجنّة ، وما أعظم فضل اللّه تعالى على كلّ المنعم عليهم.

وقد درسنا الآيات(٧١ـ٧٨)تحت عنوان: «الأمر بالجهاد واستجابة المؤمنين وإعراض المنافقين والتّذكير بيوم القيامة» يأمر السّياق الّذين آمنوا بأن يأخذوا حذرهم من عدوّهم وأن ينفروا إلى الجهاد جماعاتٍ وجميعا، وتحذّر من المنافقين المثبطين المتخلّفين عن الجهاد، فإن أصابت المسلمين مصيبة فرحوا لأنهم غائبون، وإن أصابهم فضلٌ من اللّه تعالى حزنوا لعدم حصولهم معهم على الغنيمة. ويأمر السّياق المؤمنين بأن يكون جهادهم فى سبيل اللّه تعالى، وهم الّذين يبيعون الحياة الدنيا بالآخرة، ويبشر الشهداء والمنتصرين بالأجر العظيم، ويحثّ على الجهاد فى سبيل المستضعفين من الرّجال والنّساء والولدان المضطهدين آنذاك فى مكّة، ووراء ذلك فى كلّ مكان ، ويبيّن أنّ الّذين آمنوا يقاتلون فى سبيل اللّه، أما الكافرون فإنهم يقاتلون فى سبيل الطاغوت والشّيطان الرّجيم. ولّما كان بعض المؤمنين لم يرتح للأمر بالقتال وهو الّذي سبق له قبل الهجرة أن طلبه وحرص عليه، فإنّ السّياق يشير إلى هؤلاء، وإلى خشيتهم النّاس كخشية اللّه تعالى أو أشد خشية، وإلي ما جرى على لسانهم، كما يرشدهم إلى نعيم الآخرة المقيم، ويقرّر أنّ الموت مدركٌ كلّ نفس. ولّما كان الكافرون ومن شاكلهم يتطيّرون بالمصطفى ﷺ فقد بين السّياق غباء القوم، كما بيّن لهم وجه الحقّ، وبأنّ كلّ شيءٍ من عند اللّه تعالى، وبأنّ السّيّئة الّتى تصيبهم بسبب ذنوبهم، وأنّ محمّداً ﷺ رسول رب العالمين. ويقرر السّياق ثواب الطّاعة، ويومئ إلى عذاب المعصية، ويشير إلى أقوال المنافقين وأفعالهم المتناقضة، ويأمر المصطفى ﷺ بالإعراض عنهم والتّوكل على اللّه تعالى ويعيب على المنافقين الّذين يتقنون اللّغة العربية، ومن لفّ لفّهم، عدم تدبرهم القرآن الكريم، كما يعيب عليهم إذاعة الأراجيف وحربهم المسلمين نفسيا ويرشد إلى الموقف الأمثل من الأخبار أو الشّائعات. ولّما كان القتال فرض عينٍ عليه ﷺ فقد أُمِرَ عليه الصلاة

والسلام بالقتال فى سبيل الله تعالى وبتحريض المؤمنين عليه: «عسى الله أن يكفّ بأس الّذين كفروا» ويرشد السّياق إلى ما يقوّى الألفة بين المسلمين وهي الشفاعة الحسنة من أجل مصالحهم، وإفشاء السلام. ويختم القسم بالآية الكريمة الّتي تنصّ على جمع الله تعالى الخلائق يوم القيامة الّذي لا ريب فيه.

وقد درسنا الآيات (٨٨ـ٩١) تحت عنوان: «ما لكم في المنافقين فئتين؟» إنّ السياق ينكر على المؤمنين الّذين اختلفوا فى المنافقين الّذين خذلوا المؤمنين فى أُحُد. إنهم كافرون والله سبحانه وتعالى ردّهم إلى الكفر بسبب أعمالهم السّيئة، فعلى المؤمنين أن ييأسوا من اهتداء القوم الضّالّين الّذين يريدون من المؤمنين أن يتحوّلوا منافقين مثلهم. وإنّ على المؤمنين ألاّ يتّخذوا من القوم أولياء حتّى يهاجروا فى سبيل الله تعالى. فإن تولّوا فعلى المؤمنين أن يقتلوهم فى كلّ مكان . ويستثنى السّياق الّذين لحقوا بأناسٍ بينهم وبين المؤمنين عهد فإنّ العهد ينسحب على اللاّحقين انسحابه على المعاهَدين، كما يستثني أولئك الّذين ضاقت صدورهم أن يقاتلوا المؤمنين أو الكافرين، وذلك من فضل الله تعالى على المؤمنين. إنّ أولئك إن اعتزلوا المؤمنين فلم يقاتلوهم وسالموهم فما جعل الله تعالى للمؤمنين عليهم سبيلا. وسيجد المؤمنون آخرين يريدون أن يأمنوهم ويأمنوا قومهم، ويخوضون فى حمأة الكفر بعدد مرّات اتصالهم بالكافرين. إنّ أولئك إن لم يعتزلوا قتال المؤمنين ويلقوا إليهم السَّلَم ويكفّوا أيديهم عن مساعدة أعداء الله تعالى فإنّ على المؤمنين أن يأخذوهم ويقتلوهم فى كلّ مكانٍ فقد جعل الله للمؤمنين عليهم سلطاناً مبينا.

وقد درسنا الآيات (٩٢ـ١٠٤) تحت عنوان: «ما كان لمؤمنٍ أن يقتل مؤمناً إلاّ خطأً ، وحثٌّ على الجهاد والهجرة والصّلاة» لقد بيّنت أولى آيات القسم أنّ المؤمن لايقتل أخاه المؤمن إلاّ خطأً ، كما بيّنت دية القتل خطأً حينما يكون المقتول فى ديار الإسلام أو فى ديار الكفر أو من قوم بيننا وبينهم ميثاق. وبيّن السّياق غضب الله تعالى على من يقتل أخاه المؤمن متعمّداً وعذابه العظيم يوم القيامة. ولمّا كان بعض المسلمين تورّطوا فى قتل من أعلن ساعة الهمّ بقتله إسلامه، وكان هذا الإعلان من الجائز أن يكون صدقاً فقد أمر السّياق المسلمين بالتثبّت وعدم قتل من أعلن إيمانه ابتغاء الغنيمة فإنّ ما عند الله أكبر. ثمّ إنّ المسلمين قد أعلنوا وقتاً من الأوقات

إسلامهم فى مثل هذه الظروف فلم يقتلهم أحد فلماذا لم يعاملوا الآخرين معاملة الّذين لم يقتلوهم حينما أعلنوا إسلامهم؟ويبيّن السياق تقدّم المجاهدين فى سبيل اللّه تعالى بأموالهم وأنفسهم فى الفضل على القاعدين عن الجهاد بعذر، وتقدمهم درجات على القاعدين بغير عذر. ولما كان بعض المسلمين المضطهدين فى مكّة لم يهاجروا فقد بيّن السّياق عذاب الّذين لم يهاجروا وهم قادرون على ذلك، ويستثنى المستضعفين من الرّجال والنّساء والولدان . كما يبيّن ثواب المهاجر الّذى وصل إلى مهاجَره والّذي مات فى الطّريق. وفى أجواء الخوف والسّفر والقتال يتحدّث السّياق عن الصّلاة عماد الدّين فى حال السّفر وفى حال الخوف من العدوّ فى ميدان المعركة. واللّطيف أنّ صلاة الخوف وَحْدَها هي التى يتحدّث القرآن الكريم عنها على جهة التّفصيل . ويحثّ السّياق على أخذ السّلاح والحِذْر وعلى إقامة الصلاة حال الاطمئنان، وعلى ذكر الله تعالى فى كل الأحوال ، وعلى مطاردة أعداء الله تعالى الذين يألمون كما يألم المؤمنون ولكنّهم لا مولى لهم .

وقد درسنا الآيات (١٠٥-١٢٢) تحت عنوان: «أنزلنا إليك الكتاب للحكم به وتبيين فضلنا عليك وثواب المؤمنين وعذاب الكافرين» إنّ جزءاً كبيراً من الآيات الكريمات نزل فى مناسبةٍ معينة، حينما حاول بنو أبيرق صرف تهمة السّرقة عن أحد أفراد أسرتهم وإلصاقها بواحدٍ من الأبرياء. إنّ السّياق يقرّر أنّ اللّه سبحانه وتعالى أنزل إلى النّبيّ ﷺ القرآن الكريم بالحقّ ليحكم بين كلّ النّاس بالحقّ. وإنّ المطلوب من المصطفى ﷺ ألاّ يكون مخاصماً عن الخائنين، وأن يستغفر اللّه تعالى الغفور الرّحيم وألاّ يجادل عن هؤلاء الّذين يخوّنون أنفسهم بالمعاصي فإنّ اللّه سبحانه وتعالى لايحبّ من اعتاد الخيانة وألِفَ ارتكاب الآثام. والمعروف أنّ بنى أبيرق كادوا يحملون النّبيّ ﷺ على تبرئة السّارق وفى ذلك إلصاقٌ للتّهمة بالبريء. إنّ أولئك المنافقين يستخفون من النّاس ولا يستخفون من الله سبحانه وتعالى ، وهو معهم جل وعلا إذ يحوكون ليلا من الأقوال ، ويأتون من الأفعال مالا يرضى الله تعالى عنه. وبقصد إرشاد الذين دافعوا بحسن نيّة عن الخائنين إلى سواء السبيل يسأل السّياق: إذا كنتم جادلتم عنهم فى هذه الحياة الدنيا فمن يجادل الله تعالى عنهم يوم القيامة وقد أحاط الله تعالى بكل شئ علما، ومن يكون عليهم وكيلا يرعى شئونهم ؟ الجواب لا أحد . ويفتح السياق باب

التوبة لمن عمل سوءاًوظلم نفسه وكسب إثماً فإنّ اللّه تعالى غفورٌ رحيم، وعليمٌ حكيم. وبما أنّ بنى أبيرق قد احتملوا بهتاناً وإثماً مبيناً بسبب اتّهامهم البرئ، فإنّ السياق يشير إلى هذا الحدث ويقرّر ذلك الذّنب الكبير والإثم المبين. ولما كان بنو أبيرق حريصين فى هذه القضيّة على صرف المصطفى ﷺ عن الحكم فيها بالحقّ وكان القوم إنّما يضلّون أنفسهم ويضرّونها دون أن ينال المصطفى ﷺ شئٌ من ذلك، فقد قرّر السّياق كلّ هذه الأمور وبيّن فضل اللّه تعالى العظيم على المصطفى ﷺ الّذي أنعم اللّه تعالى عليه بالقرآن الكريم والسّنّة المطهرة، والّذي علّمه ما لم يكن يعلم عليه الصّلاة والسّلام، وتوجيهاً للمؤمنين إلى ا لتّناجي فى الخير يقرّر السّياق أنّ الخير من ذلك هو ما كان فيه أمرٌ بصدقة أو معروف أو إصلاح بين النّاس. إنّ من يفعل ذلك له أجرٌ عظيم. أما من خالف الرّسول ﷺ على غرار المنافقين الّذين عادوا إلى الكفر بعد أن ذاقوا حلاوة الإيمان فإنّ الله سبحانه وتعالى سيجعل وليّهم ما آثروه وليّاً لهم وناصراً من دون اللّه تعالى ولهم فى الآخرة عذاب النار. ولما كان الذى تولّى كِبْرَ السّرقة قد ارتد عن الإسلام فإنّ السّياق يقرّر أنّ اللّه سبحانه وتعالى لايغفر لمن أشرك باللّه تعالى ويغفر ما دون ذلك من الذّنوب إن شاء، كما يقرّر ضلال المشرك البعيد. والعجيب فى أمر هذا المرتد أنه وقد أتبعَهُ الشّيطان وقاده إلى مهاوى الرّدى قد لحق بمشركى مكّة الذين اتّخذوا لهم أصناماً يعبدونها من دون اللّه تعالى وخلعوا عليها أسماء اناث. إنّهم رضوا لآلهتهم أسماء الإناث بينما هم يكرهون الإناث! وإنّهم يعبدون الأوثان ويطيعون الشيطان الرجيم المطرود من رحمة اللّه تعالى الذى أقسم لربّ العزّه بعزّته جلّ وعلا بأنّه سيتّخذ من بنى آدم نصيباً مفروضاً يضلّهم ويمنّيهم ويأمرهم بأن يقطّعوا آذان الأنعام وتركها للطواغيت ويأمرهم بأن يغيّروا دين اللّه تعالى وما خلق جلّ وعلا وذلك بالوشم والومص وما إليها. إنّ هؤلاء الّذين اتّخذوا الشياطين أولياء من دون اللّه تعالى خاسرون، لأنّ وعود الشياطين كلّها غرور فكيف بأمانيّه ولهذا هم سيخلدون فى النّار وبئس القرار إن لم يتوبوا إلى اللّه تعالى توبةً نصوحا. أمّا المؤمنون فإنهم سيخلدون فى جنات عدن «وعد اللّه حقّا. ومن أصدق من اللّه قيلا».

وقد درسنا الآيات (١٢٣ـ١٣٤) تحت عنوان: «الكلّ مجازىً بما عمل، والحثّ

على اعتناق دين الإسلام وعلى التّقوى، ولله ما في السّماوات الأرض» يشير السّياق إلى أمانيّ اليهود والنصارى والمسلمين بدخول الجنّة لمجرد الانتماء إلى موسى وعيسى ومحمّد صلوات اللّه وسلامه عليهم أجمعين، ويقرّر السّياق أنّ ذلك ليس بأمانيّهم ولا بأهوائهم ولكن بعمل الصّالحات واجتناب السّيّئات والإيمان وإسلام الوجه لله تعالى، وإخلاص العمل لله تعالى، واتّباع دين الإسلام. لقد عبّر عن اتّباع محمد ﷺ الّذي بعثه الله تعالى بالحنيفيّة السّمحة في صورتها الكاملة باتّباع ملّة إبراهيم حنيفا ومائلاً إلى الإسلام قصداً. إنّ النبي الوحيد الّذي يمكن أن يتّخذ أسوةً حسنة هو محمّد بن عبد الله ﷺ. وإنّ سورة النّساء الّتي تُعنى بالنّساء كثيراً وبكلّ ضعيف تعود إلى النّساء والضعفاء. فبشأن طلب الصحابة رضي الله تعالى عنهم منه ﷺ أن يفتيهم في شأن النساء يقرر السياق أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ يفتيهم فيهن، وفيما يُتلى عليهم في القرآن الكريم في يتامى النساء اللاتي لا يؤتينهن ما كتب لهن وترغبون أن تنكحوهن والمستضعفين من الولدان وفي أن يقوموا لليتامى بالعدل. إنّ الله تعالى هو العليم بكل شيء. وبشأن الزوجة الّتي خافت من زوجها نشوزاً أو إعراضاً يحثّ السّياق على الصّلح، ويقرّر شُحّ كلٍّ من الزوجين، ويحث على الإحسان والتّقوى فإنّ الله تعالى خبيرٌ بما يعملون. ويقرّر السّياق أنّ الأزواج لن يستطيعوا أن يعدلوا بين الزّوجات في مجال الميل القلبيّ فعليهم ألاّ يميلوا كلّ الميل وأن يصلحوا ويتّقوا فإنّ الله تعالى هو الغفور الرّحيم: «وإن يتفرّقا يُغْنِ الله كلاً من سعته. وكان الله واسعاً حكيما» وإثر حديث الآيات الكريمات عن فريقٍ من الضعفاء وعن فريقٍ آخر من الأقوياء كالأولياء والأزواج ومن إليهما يجيء في الآيات الكريمات التاليات الإشارة إلى ملك الله تعالى السّماوات والأرض وما فيهنّ وقدرته عزّ وجل المطلقة. إنّ على النّاس أن يتّقوا الله تعالى، أما الكافرون فعليهم أن يعلموا أن الله تعالى غنيٌّ عنهم، وأنه رب كل شيء ومليكه وأن على الناس أن يعلموا أن الله تعالى قادر على أن يذهبهم ويأتي بآخرين يخلفونهم، وأن على من أراد ثواب الدنيا أن يكون كبير الهمة فيسأل الله تعالى السميع البصير أن يؤتيه ثواب الدنيا والآخرة معا.

وقد درسنا الآيتين (١٣٥ـ١٣٦) تحت عنوان: «كونوا قوّامين بالقسط شهداء لله، وحقّقوا أركان الإيمان» وفي الآية الكريمة الأولى يؤمر الّذين آمنوا بأن يكونوا

قوّامين بالقسط والعدل، مؤدّين الشّهادة على وجهها ابتغاء مرضاة اللّه تعالى ولو كانت الشّهادة على أنفسهم أو الوالدين والأقربين، ومن باب الأولى من هم أبعد من هؤلاء، ولو كانت الشّهادة للغنىّ والفقير أو عليهما. إنّ العدل هو المطلوب، وإنّ على من لوى الشّهادة أو أعرض عن أدائها أن يعلم أنّ اللّه خبيرٌ ببواطن الأمور كظاهرها. وفى الآية الكريمة الأخرى يؤمر الّذين آمنوا بأن يؤمنوا باللّه تعالى ورسوله ﷺ والكتب السّماوية وبقية أركان الإيمان وكذلك الإسلام، إنّ من كفر بشيءٍ من ذلك فقد ضلّ ضلالاً بعيدا.

وقد درسنا الآيات (١٣٧ـ١٤٧) تحت عنوان: « من صفات الكافرين والمنافقين وصفات طريق العودة إلى اللّه تعالى». إنّ السّياق يتحدث عن المرتدّين الّذين آثروا الكفر فأولئك لن يغفر اللّه تعالى لهم ذنبهم العظيم، ولن يهديهم سبيلا. ومن هؤلاء من يدّعى الإيمان وهم المنافقون الّذين يُبَشَّرون بالعذاب الأليم لأنهم يبطنون الكفر ويتّخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ابتغاء العزّة عندهم بينما هم الذّليلون حقّا. ومما يقوم به المنافقون والكافرون الاستهزاء بالقرآن الكريم فعلى المؤمنين ألاّ يقعدوا معهم فى مجالسهم حتّى يتحدّثوا فى غير الاستهزاء بالقرآن الكريم وإلاّ شاركهم المؤمنون فى الإثم وكانوا مع المنافقين والكافرين الّذين يجمع اللّه تعالى بينهم فى جهنم . وهؤلاء المنافقون يتربصون الدّوائر بالمؤمنين وفى حال انتصار أيٍّ من الفريقين يزعمون أنهم كانوا فى صفّهم بقصد أن ينالوا حظّهم من الغنيمة. إنّ اللّه سبحانه وتعالى سيحكم يوم القيامة بين الجميع، ولن يجعل اللّه تعالى فى الحياة الدنيا للكافرين على المؤمنين سبيلا. وإنّ المنافقين يخادعون اللّه تعالى وهو جلّ وعلا خادعهم فعلاً لأنّهم هم الخاسرون دائماً، وإذا قاموا بأجسادهم إلى الصّلاة قاموا كُسالى وهم يريدون الرّياء ولايذكرون اللّه تعالى إلاّ ذكراً قليلاً فى أثناء أداء تلك الصّلاة رياءً. وإنّ المنافقين مذبذبون بين الإيمان والكفر ، وبما أنّهم فضّلوا الكفر فإنّ اللّه سبحانه وتعالى سيزيدهم ضلالاً ولن يهديهم إلى سبيل الهداية. وينهى السّياق المؤمنين عن اتّخاذ الكافرين أولياء وإلاّ كان العذاب أليما. ويقرّر السّياق أنّ المنافقين فى قاع جهنم ولن يجدوا لهم نصيرا، ويستثنى السّياق الّذين تابوا منهم وأصلحوا عملهم واعتصموا باللّه تعالى وأخلصوا دينهم للّه تعالى. إنّ هؤلاء سيكونون مع

المؤمنين الّذين لهم الأجر العظيم فى الجنّة . ويختم الجزء الخامس بالآية الكريمة الّتى تبيّن انّ اللّه سبحانه وتعالى لا يظلم مثقال ذرّة، وأنّه جلّ وعلا سيثيب من شكر له وآمن به وكان اللّه تعالى هو الشّاكر العليم.

وقد درسنا الآيات (١٤٨ـ١٥٢) تحت عنوان: «لا يحبّ اللّه تعالى الجهر بالسّوء من القول ، وعذاب الكافرين وثواب المؤمنين» إنّ اللّه سبحانه وتعالى لا يحبّ الجهر بالسّوء من القول إلاّ من ظُلِم فإنّ من حقّه أن يُعْلن عن الظّلم الّذى وقع عليه وأن يدعو عليه دون بغي فإنّ اللّه سبحانه وتعالى سميعٌ لكلّ قول عليم بحقيقة ارتكاب الظّلم. وكما أعطى الإسلام الإنسان الحقّ أن يدفع عن نفسه الظّلم، ذكّره فى المقابل بالخير الّذى وصله من شخصٍ آخر، وخيّره بين إبدائه وإخفائه، وفى ذلك تنبيهٌ إلى أنّ النّاس يمكن أن يأتى منهم الخير كما يأتى منهم الشّرّ. وإنّ هذا التّنبيه إلى الخير جعله السّياق مطيّةً للعفو عن السّوء. وإذا كان السّياق، وقف عند العفو بشأن الإنسان ، فإنه تجاوز العفو إلى القدرة المطلقة فى حقّ الذات العليّة. وإنّ من مظاهر السّوء الّتى يرتكبها العباد فى حقّ الذّات العلية هذه المرّة الكفر باللّه تعالى وبرسله، والإيمان ببعض الرّسل والكتب والكفر بالبعض الآخر، والرّغبة فى اتّخاذ سبيل بين الإسلام والكفر. إنّ أولئك هم الكافرون الّذين أعدّ اللّه سبحانه وتعالى لهم عذاباً مهيناً، وذلك فى مقابل الثواب العظيم الّذى أعده اللّه تعالى للمؤمنين إيماناً كاملا. وإنّ فى الإشارة إلى صفتي المغفرة والرحمة فى حقّ الذّات العليّة حثّا لهؤلاء الكافرين على الإيمان .

وقد درسنا الآيات (١٥٣ـ١٦٢) تحت عنوان: « من صفات أهل الكتاب السّيّئة، وعذاب الكافرين وثواب المؤمنين»

إنّ من أقوال بنى إسرائيل السّيّئة وأفعالهم سؤالهم النّبيّ ﷺ ،دليلاً على إعراضهم عن دين الإسلام، أن ينزل عليهم كتاباً من السّماء مكتوباً وجملةً واحدةً كالتوراة الّتى أنزلها اللّه تعالى على موسي، والسّياق ينبّه على الفور إلى أنّ القوم قد كفروا بالتّوراة الّتى فيها صفات الكتاب الّذي يطلبه خلفُهم المشابه لهم فى الصّفات، من المصطفى ﷺ، وهاهم أولاء يطلبون من موسي عليه السّلام أن يريهم اللّه تعالى عِيانا، فأخذتهم الصّاعقة بظلمهم وأماتهم . واتّخذوا العجل إلهاً فى أثناء

ذهاب موسي ليمقات ربّه جلّ وعلا من أجل تلقّى التّوراة فعفا اللّه تعالى عنهم، وآتى اللّه تعالى موسي عليه السّلام آياته البيّنات. وبسبب رفضهم العمل بالتّوراة على عهد موسي رفع اللّه تعالى جبل الطور فوقهم كأنّه ظلّة فقالوا سمعنا وأطعنا، وقيل لهم على عهد يوشع بن نون عليه السّلام ادخلوا باب القرية سجّداً واسألوا اللّه تعالى أن يحطّ عنكم خطاياكم فبدّلوا القول والفعل، واعتدى خَلَفُهُمُ السّوْء فى يوم السّبت بصيد السمك فيه فمسخهم اللّه تعالى قردة، وأخذ جلّ وعلا منهم ميثاقاً غليظا. لقد لعنهم اللّه تعالى بسبب نقض الميثاق وكفرهم بآيات اللّه تعالى وقتلهم الأنبياء بغير حقّ وبسبب قولهم لمحمّد ﷺ «قلوبنا غلف» فزادها اللّه تعالى انصرافاً عن الخير، وبسبب كفرهم به عليه الصّلاة والسّلام، وبسبب كفرهم بعيسي عليه السّلام «وقولهم على مريم بهتاناً عظيما» وبسبب قولهم كذباً : « إنّا قتلنا المسيح عيسي ابن مريم رسول اللّه » والمعروف أنّهم لايؤمنون بأن عيسي عليه السّلام ابن مريم ، ولايؤمنون بأنّه رسول اللّه، إنما أرادوا الاستهزاء وقد بين السّياق وجه الحقّ فى عيسي عليه السّلام وأنه جلّ وعلا رفع عيسي عليه السّلام إليه حينما همّ اليهود بقتله، وأنهم قتلوا شِبهَهُ عليه السّلام. ويقرّر السّياق أنّ كلّ أهل الكتاب سيؤمنون بعيسي عليه السّلام حينما ينزل آخر الزّمان تابعاً لمحمّد بن عبد اللّه ﷺ . وقد حرّم اللّه تعالى على بنى إسرائيل طيبات أحلّت لهم بسبب ظلمهم وصدّهم عن سبيل اللّه تعالى كثيراً، وأخذهم الرّبا الّذي نهوا عنه، وأكلهم أموال عباد اللّه تعالى بالباطل، وإنّ للكافرين منهم عذاباً أليما . ويستثنى السّياق فريقين من بنى إسرائيل من ذلك العذاب ، الرّاسخون فى العلم الّذين طبقوا تعاليم التّوراة فآمنوا بمحمّد ﷺ وبالقرآن الكريم وبموسي عليه السّلام وبالتوراة وطبّقوا أركان الإسلام والإيمان. إنّ لأولئك أجراً عظيماً.

وقد درسنا الآيات(١٦٣ـ١٧٠) تحت عنوان :«الإيحاء بالنبوة وبالقرآن وثواب المؤمنين وعقاب الكافرين» لقد تبينا فى آيات هذا القسم التّرتيب العجيب الّذي ينساب رقّةً وعذوبةً والّذى يفيض حكمة، التّرتيب العجيب لأسماء النّبيّن، كما بيّنا التّنبيه اللّطيف لمزيد فضل اللّه تعالى على بعضٍ منهم. وقد كان حظّ المصطفى ﷺ من هذا الفضل هو الموفور، فاللّه سبحانه وتعالى يشهد أنّ القرآن الكريم كلامه جلّ

وعلا أنزله بعلمه تعالى إلى النّبىّ ﷺ وكذلك يشهد الملائكة المقرّبون . والرسول الكريم جاء النّاس أجمعين بالحقّ من ربهم جلّ وعلا وهو القرآن الكريم ، فعليهم أن يؤمنوا وإلا كان الحساب عسيرا .

وقد درسنا الآيات (١٧١ ـ ١٧٥) تحت عنوان: «يأهل الكتاب قولوا على الله الحقّ ، ويأيها النّاس آمنوا بالله والرّسول والقرآن» وقد لفت انتباهنا بشأن الآية الكريمة الأولى أنها تدور حول المعنيين الاثنين اللّذين تضمنهما القول: «يأهل الكتاب لا تغلوا فى دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحقّ» وقد ابتدأ التبيين لكلّ من المعنيين بأداة الحصر : «إنما» ، كما لفت انتباهنا أنّ الآية الكريمة يغلب عليها تبييناً وتذييلاً ثلاثيّة المعانى والمقاطع . وبشأن الآية الكريمة التالية التى تنفى استنكاف المسيح عليه السلام أن يكون عبداً لله تعالى والملائكة المقربين وقفنا ملياً عند جملة : «يستنكف» وأشرنا إلى أنها بمعنى يأنف ، وأنها تومئ إلى الحركة الحسيّة التى تفيد الإعراض حينما يُرى المستنكف داعيَه إحدى نكفتيه بسكون الكاف وفتحها وهما نكفتان أو غدّتان أو عقدتان الحلقوم فى أصل اللّحى ، كما أشرنا إلى أنّها تومئ إلى المرحلة الأخرى الحسيّة وإلى المرحلة المعنوية المتعلقة بها . أما المرحلة الأخرى الحسيّة فإنّها المرتبطة بداء النُّكاف الّذى يصيب هذه الغدة ممّا يضطرّ معه المريض إلى الشموخ برأسه بسبب المرض ، وأما المرحلة المعنوية المتعلقة بها فإنّها حالة الأنفة والتعالى والغطرسة التى تصيب النّفس أوّلاً ، وتصيب العنق آخراً حينما يأخذ شكلُ عنق المتعالى المتغطرس شكلَ المريض بداء النُّكاف فيرفع رأسه اضطراراً ، ولكن المستنكف يرفع رأسه اختياراً، أنفةً وتعالياً،غطرسةَ وكبرا . ولهذا تحولت الآية الكريمة من الاستنكاف إلى الكبر وجمعت بينهما فى قَرَن .

ويغلب على الآيات الكريمات بعد ذلك ثنائية المعانى أو المقاطع فى حديثها عن ثواب المؤمنين الذين يعملون الصالحات وعذاب المستنكفين المستكبرين . واللّطيف أنّ آخر آيات القسم اكتفت بذكر الثواب عن ذكر العقاب لأنّ الآية الكريمة السابقة عليها تحدّثت عن العقاب ، وذلك مظهرٌ من مظاهر رحمة الله تعالى التى تسبق عذابه .

وقد درسنا الآية الكريمة الأخيرة فى السّورة وهى آية الكلالة آخر آيات المواريث الثلاث . والمعروف أنّ الآية الكريمة هنا تتحدّث عن الإخوة لأبوين أو لأب، وأنّها آخر آيات الأحكام نزولاً على المصطفى ﷺ .

فهرست المصادر والمراجع

ابن الآثير (ضياء الدين بن الآثير) المثل السّائر فى أدب الكاتب والشاعر تحقيق وشرح وتعليق د . أحمد الحوفى ود . بدوى طبانة منشورات دار الرفاعى بالرياض ـ الطبعة الثانية ١٤٠٣ هـ ١٩٨٣ م .

ابن تيمية (أحمد بن عبد الحليم) الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر تحقيق د . صلاح الدين المنجّد دار الكتاب الجديد ـ بيروت لبنان ١٩٧٦ م ١٣٩٦ هـ مجموع فتاوى ابن تيمية الرباط ـ المغرب ـ الطبعة الثانية ١٤٠١ هـ ١٩٨١ م .

ابن حجر (الحافظ أحمد بن على بن حجر العسقلانى) الإصابة فى تمييز الصحابة . دار إحياء التراث العربى تصوير بيروت لبنان عن الطبعة الأولى سنة ١٣٢٨ هـ ـ فتح البارى بشرح صحيح البخارى تحقيق عبد العزيز بن عبد الله بن باز ومحمد فؤاد عبد الباقى ومحب الدين الخطيب ـ المكتبة السّلفيّة ـ المدينة المنورة.

ابن عطية (أبو محمد عبد الحق بن عطية الأندلسى) المحرر الوجيز فى تفسير الكتاب العزيز . تحقيق وتعليق الرحالى الفاروقى وعبد الله بن ابراهيم الأنصارى والسيد عبد العال السيد ابراهيم ومحمد الشافعى صادق العنانى ـ الطبعة الأولى قطر ١٣٩٨هـ ١٩٧٧ م .

ابن عقيل (بهاء الدين عبد الله) شرح ألفيّة ابن مالك تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد . الطبعة التاسعة ١٣٧٥ هـ ١٩٥٦م.

ابن فارس (ابو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا) مقاييس اللغة تحقيق

وضبط عبد السلام محمد هارون الطبعة الثانية ١٣٩٠ هـ ١٩٧٠ م حلبى ـ مصر .

ابن القيم (شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبى بكر) الفوائد المشوق الى علوم القرآن وعلم البيان . مصر تصوير دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ لبنان ـ بدون تاريخ .

ابن كثير (عماد الدين أبو الفدا إسماعيل بن كثير) تفسير ابن كثير دار إحياء التراث العربى بيروت ١٣٨٨ هـ ـ ١٩٦٩ م .

ابن منظور (جمال الدين محمد بن مكرم) لسان العرب . بيروت ١٣٧٤ هـ / ١٩٥٥ م .

ابن هشام (أبو محمد عبد الملك) السيرة النبوية . تحقيق مصطفى السّقّا وإبراهيم الأبيارى وعبد الحفيظ شلبى دار إحياء التراث العربى. بيروت ـ لبنان ١٩٨٥ م .

أبو حيان (محمد بن يوسف بن على بن يوسف بن حيان) البحر المحيط تصوير بيروت .

أبو السعود (محمد بن محمد) تفسير إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم ـ دار الفكر بيروت ١٤٠٠ هـ ١٩٨٠ م .

الأخفش (أبو الحسن سعيد بن مسعده) معانى القرآن تحقيق د . فائز فارس . الكويت ١٩٧٩ م .

الأصفهانى (أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهانى) المفردات فى غريب القرآن تحقيق محمد سيّد الكيلانى . دار المعرفة بيروت لبنان ـ بدون تاريخ .

باجوده (د حسن محمد) تأملات فى سورة الإسراء دار الاعتصام.

القاهرة ١٩٧٨ م تأملات فى سورة محمد ﷺ . دار الاعتصام القاهرة ١٩٨٠ م .

البخارى (أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم) كتاب الصحيح كتاب الشعب ١٣٧٨ هـ .

الحطيئة الدّيوان تحقيق د. نعمان أمين طه . تراث العرب حلبى ـ مصر الطبعة الأولى ١٣٧٨ هـ ١٩٥٨ م .

الخضرى (محمد) نور اليقين فى سيرة سيد المرسلين الطبعة الثانية دار المعارف للطباعة ـ بدون تاريخ .

الرقيات (عبد الله بن قيس) الديوان . تحقيق وشرح د . محمد يوسف نجم بيروت ١٣٧٨ هـ ـ ١٩٥٨ م .

الزمخشرى (جار الله أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشرىّ) أساس البلاغة . دار الفكر بيروت ـ لبنان ١٤٠٩ هـ / ١٩٨٩ م
الكشاف حلبى ١٣٦٧ هـ / ١٩٤٨ م .

سابق (السّيدّ) فقه السّنّة . الطّبعة الأولى ـ بيروت ١٣٩٧ هـ / ١٩٧٧ م .

السيوطى (جلال الدّين ، عبد الرّحمن بن أبى بكر) تفسير الجلالين . معترك الأقران فى إعجاز القرآن . ضبط أحمد شمس الدّين . دار الكتب العلمية . بيروت ـ لبنان . الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨ م .

صافى (محمود) الجدول فى إعراب القرآن وصرفه . تصنيف محمود صافى . مراجعة لينه الحمصى . طبع على نفقة إدارة إحياء التراث الإسلامى . دولة قطر . دار الرّشيد دمشق .

بيروت ١٤٠٦ هـ / ١٩٨٦ م .

الطبرى (أبو جعفر محمدّ بن جرير الطّبرى) جامع البيان فى تفسير القرآن . الطبعة الأولى . بولاق ١٣٢٩ هـ .

الفراء (أبو زكريّا يحيى بن زياد) معانى القرآن تصوير بيروت عن الهيئة المصريّة العامّة للكتاب ١٩٨٠ م الطبّعة الثانية .

الفيروزابادى (مجد الدّين محمّد بن يعقوب) القاموس المحيط .

القرطبى (أبو عبد الله محمّد بن أحمد الأنصارى) الجامع لأحكام القرآن . كتاب الشّعب .

القيعى (د . محمّد عبد المنعم) قانون الفكر الإسلامى . الطبعة الأولى . القاهرة ١٤٠١ هـ / ١٩٨١ م .

الميدانى (أبو الفضل أحمد بن محمّد النّيسابورى) مجمع الأمثال . . تحقيق محمّد محيى الدّين عبد الحميد . القاهرة ١٣٧٩ هـ ١٩٥٩ م .

النووى (يحيى بن شرف) رياض الصّالحين . تصوير بيروت . بدون تاريخ .

الواحدى النيسابورى (أبو الحسن على بن أحمد) أسباب النّزول . تحقيق السيّد أحمد صقر الطبعة الثّالثة ١٤٠٧ هـ / ١٩٨٧ م دار القبلة للثقافة الإسلامية . دمشق . بيروت .

ياقوت (شهاب الدّين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموى) معجم البلدان بيروت ١٣٧٤ هـ / ١٩٥٥ م .

فهرست الموضوعات

فهرس الكتاب

الموضـــــوع	رقم الآية	رقم الصفحة
المقدّمة		٣
تمهيد		٧
الدّراسة المتأمّلة لسورة النّساء		١٥
١ - الأمر بتقوى اللّه تعالى وصلة الأرحام وبالقسْط فى اليتامى والنّساء .	١ - ١٠	١٧
٢ - آيات الميراث	١١-١٤	٥٣
٣ - حكم الزّنا فى أوّل الإسلام وشروط التّوبة .	١٥-١٨	٧١
٤ - وصايا بالنّساء وبيان المحرمات منهنّ	١٩-٢٤	٨٣
٥ - بعض الأحكام فى شئن النّساء	٢٥-٢٨	١٠٥
٦ - عنايةٌ بالأموال والدّماء ، وحثٌّ على القناعة وإيتاء ذى الحق حقه	٢٩-٣٣	١١٩
٧ - للرّجال حقُّ القوامة على النّساء	٣٤-٣٥	١٣٩
٨ - الأمر بعبادة الله وطاعة الرّسول وبالإحسان إلى العباد والنّهى عن الشّرك بأنواعه	٣٦-٤٣	١٦١
٩ - من صفات أهل الكتاب السيّئة، وعقاب الكافرين وثواب المؤمنين	٤٤-٥٧	٢٠١
١٠- الأمر بأداة الأمانة ، والحكم بما أنزل الله وبطاعة الرّسول ، وتبيين ثواب الطائعين	٥٨-٧٠	٢٣٩
١١- الأمر بالجهاد ، واستجابة المؤمنين		

الموضـــــوع	رقم الآية	رقم الصفحة
وإعراض المنافقين والتّذكير بيوم القيامة	٧١_٨٧	٢٧٥
١٢- ما لكم فى المنافقين فئتين ؟	٨٨_٩١	٣٢٣
١٣- ما كان لمؤمن أن يقتل مؤمناً إلاّ خطأً، وحثٌ على الجهاد والهجرة والصّلاة	٩٢_١٠٤	٣٣٧
١٤- أنزلنا إليك الكتاب للحكم به ، وتبيين فضلنا عليك وثواب المؤمنين وعذاب المشركين	١٠٥_١٢٢	٣٨٧
١٥- الكلّ مجازىً بما عمل ، والحثّ على اعتناق دين الإسلام وعلى التّقوى ، ولله ما فى السماوات والأرض	١٢٣_١٣٤	٤٢١
١٦- كونوا قوّامين بالقسط شهداء لله، وحققوا أركان الإيمان	١٣٥_١٣٦	٤٥٩
١٧- من صفات الكافرين والمنافقين وصفات طريق العودة إلى الله تعالى	١٣٧_١٤٧	٤٦٧
١٨- لا يحبّ الله تعالى الجهر بالسّوء من القول وعذاب الكافرين وثواب المؤمنين	١٤٨_١٥٢	٤٨٩
١٩- من صفات أهل الكتاب السيّئة وعذاب الكافرين وثواب المؤمنين	١٥٣_١٦٢	٥٠٣
٢٠- الإيحاء بالنّبوة وبالقرآن وثواب المؤمنين وعقاب الكافرين	١٦٣_١٧٠	٥٣٥
٢١- يأهل الكتاب قولوا على الله الحقّ، ويا أيّها النّاس آمنوا بالله والرّسول		

الموضـــــوع	رقم الآية	رقم الصفحة
والقرآن	١٧١_١٧٥	٥٥٧
٢٢- آية الكلالة	١٧٦	٥٧٧
الخاتمة		٥٨٥
فهرست المصادر والمراجع		٦٠١
فهرست الموضوعات		٦٠٧